سر الحقيبة الصفراء

للكاتب الروسي سيدريك ديمتروف
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

سيدريك ديمتروف ابن غير شرعي لجورج ديمتروف أعدى أعداء الحرب والفاشية ؛ وقد ولد في أوائل هذا القرن من إحدى سيدات البلاط القيصري مدام ستيلا نوفيكوف ، ونشأ الصبي في بطرسبرج ، ثم تلقى العلم في سويسرا وألمانيا وإيطاليا وماتت أمه قبيل الحرب العظمى وتركت له ثروة ضخمة تبرع بها للثورة واعتمد على أوراقه وأقلامه فأخرج « مدينة الصفر » و« أتون الثورة » و« لا تكتموا الشهادة » ، ومن قصصه القصير : « سر الحقيبة الصفراء » وفيها من تحليل النفس ، وحبك الوقائع وعقد الحوادث ما لا يقدر على معالجته إلا هؤلاء الكتاب الروس المنفردون في العالم بطرائقهم الفذة . ومؤلفنا في وسط العقد الرابع ويعيش في لندن

إسمع ! إن نصف أعمالنا قبل وقوع الحرب المقبلة يقوم على التجسس ، وينهض على استراق أسرار الأقران والأعداء ؛ وقد بثثنا عيوننا وأرصادنا ، ونشرنا آذاننا، ونثرنا أسماعنا ، في ناحيات الدنيا وبلادها كافة ، فما تركنا بلداً ولا مدينة أو قرية في دولة قوية أو مملكة ضعيفة ، نظنها ستثور في وجوهنا إذا وقعت الواقعة إلا ملأناها بعيوننا ... أنظر إلى هذه الخريطة الجغرافية وقل لي ماذا ترى ؟

— أرى دوائر صغيرة تمثل البلدان ، وخطوطاً غليظة وأخرى دقيقة ، تدل على سكة الحديد وطرق السيارات ، وعلامات مبهمة وتصاوير بعض النبات والحيوان ورموزاً شتى

— إعلم أنه من برلين إلى أمستردام ، ومن دنكرك إلى شربورج ، ومن هارتيش إلى بريستول ، ثم من كاليه إلى بيافور ، ومن باريس إلى تاراسكون ، شباك محبوكة وحبائل مفتولة ، أعينها وخيوطها وسداها ولحمتها ، رجال ونساء من أذكى بني الإنسان ، وأحلامهم وأعمقهم دهاء، وأوسعهم حيلة ، وأغناهم موارد، وأقدرهم على فنون الكلام والكتابة والأخذ والعطاء. وستكون مدينة بازيل قاعدتنا ومركز دائرتنا ومحط رجال أعواننا كما كانت برن وبيارتز في الحرب الماضية . وستعلم عما قليل من رئيسك المباشر لمَ وقع الاختيار على بازيل . ويكفي أن تعلم الآن أنها مرتبطة بيولوني عن طريق شالون ، وأوستند وباريس وانتورب وبروكسيل وروتردام ولوزان بخطوط حديدية ثابتة وقديمة !

— فهمت لماذا اخترتم بازيل

— لا تقل « اخترتم » بل قل اخترنا ... ولكنك لا تعلم « مأموريتك » المباشرة . لقد ضاعت من رسولنا في « تشافهاوزن » مجموعة مدهشة تنطوي على حقائق غريبة ثابتة لا يشوبها للريب شائبة ، تدل على صحتها تقارير مهولة اختلسها جاسوس فرنسي أثناء تجسسه على مندوبنا بعد أن قتله اغتيالا في فندق عتيق في شاموني . وإن مالدينا من الأخبار يقنعنا بأن القاتل لا يزال في تلك الناحية ، فسددنا عليه الطرق وضيقنا الخناق ، وأحطناه بسياج من الرقباء في أعماس

وكيلوز وشامبيرى وتورينو وسانتيا وأرونا ودومودوسولا ، ولن يفلت من براثننا مهما كلفنا اقتناصه من مال ونصب وأعمار رجال

— حتى أعمار الرجال ؟

— نعم وأعمار الرجال ، فان فى تلك المجموعة المختلسة مصورات يدوية عن المواقع والأماكن والحصون والثغور والشواطئ والمعاقل الفرنسية والانجليزية التى كان رجالنا يدأبون — هذه السنين الطوال من بعد الهدنة إلى الشهر الماضى — على تصويرها ، وأنباء وزارات الحرب فى أوطان ماريان وجون بول ، عن دقائقها وعظائمها . ونحن نطلب هذه الوثائق ولا نطلب الثأر الآن

— وهل يطل دم صاحبنا الذى راح ضحية واجبه ؟

— نعم .. ولكن إلى حين . . لأننا نطمع فى استمالة هذا الجاسوس الينا ، فنضحي بشهوة الانتقام فى سبيل احراز خدمته وتسجيل اسمه فى جدول أتباعنا . واليك الآن هذه الجوازات التى تنطبق على الشخصيات المتعددة التى ستتخذها أثناء تنقلك فى مختلف البلدان ، وهذا دفتر الشيكات الذى يبيح لك أن تنفق ماشئت فياشئت ، وهذه وسيلة الاستعانة عند بلوغ الاخطار اقصى غايتها ، وهذا المسدس الموعود الذى يطلق النار دون صوت أو دخان ؛ ومع السلامة ! نحن لا نراقبك ، ولا نقتفي أثرك ، ولا نسيء الظن بك ولا نعرقل مسعاك ولا نبخسك جهودك . ونكافئك سواء أنجحت أم لم تنجح ، ولكننا نقتلك شر قتلة إذا اقترفت خيانة بعد أن نأتمنك

* * *

بدأت عملى فى نفس اليوم الذى تلقيت فيه الأوامر والتعليمات ، فسافرت من فلورنس (فيرنزه) إلي باريس ، فى قطار الليل السريع الذى قطع الحقول والوديان واخترق الانفاق ومزق أحشاء الجبال في سمبلون وسان جوتار بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة ماراً ببولونيا وبارماوفيدانزا وميلانو ونوفارا ولونيو وبريج وسان مورتيز ولوزان وجنيف . وهنا — فى جنيف — قطعت خطة السفر لأستريح — ولأقضى بضعة أيام فى أحضان « جوتى » حبيبتى الروسية التى بعثت إلى ببرقية تقول فيها : « لن أستطيع على سكونك صبراً بعداليوم . فأين أنت ومتى أراك ؟ » فلقطنى ساعي البرق فى شارع ليوناردو دافنسي عدد ٦ قبل سفرى بساعة واحدة فى منزل سينيورا ماريا ستمبريني الذى اتخذته مستقراً وملجأ خفياً . فعجبت من توارد خاطرها وخاطرى لدى السفر ، ولكننى لم أشأ أن أجيبها ببرقية خشية الرقباء ، فصبرت على الصمت وكان أحر من الجمر

وعند ما وصلت إلى محطة جنيف فى صباح ذلك اليوم السعيد الذى حددته الأقدار للقائنا ، شعرت بحزن شديد عند ما رأيت الأهل والاخدان ينتظرون أصدقاءهم وذويهم على الأفاريز ويقابلونهم بالقبل وباقات الأزهار . ولا يقدر هذه اللذة إلا الذى يحرم منها ؛ ويكون الألم شديداً بقدر نصيبه فى العمل على الحرمان . فأنا الذى لم أكتب لها ولم اشعرها بمقدمى ، وإلا كانت أول قادم وأبكر منتظر . فعلى وحدى تقع مسئولية هذه الوحدة التى شعرت بها لدى النزول من القطار . ولم يكن لى متاع أحمله أو أشغل بثقله ، فقد وكلت أمر الحزم والشحن و « الشيل والحط » والرفع والخفض والتخليص والتفتيش ، إلى وكلائى فى شركة هوبز ومونتفردى ، التى اشتهرت بالحذق فى هذه الأعمال . ولم يكن فى حراستى

سوى حقيبة صغيرة من الجلد الأصفر الناعم ، وليس فيها شيء سوى أدوات الزينة والحلاقة والمباذل وقنينة من المداد المعطر أملأ به أنابيب أقلامي. فلما بلغت موضع التفتيش الجركي مددت يدي بالحقيبة بمنتهى السأم والضجر وعدم الاكتراث . ولم أشأ أن ألقي نظرة على وجه الموظف المختص . ويظهر أن ذلك المسكين لحقته العدوي من ضجري وعدم اكتراثي فلم يأبه لفتح الحقيبة ، وقنع بأن وضع عليها علامة المرور بالطباشير ، فتناولت الحقيبة وكان في نفسي رغبة قويه أن أتخلى عنها واستغنى عن محتوياتها ، لم يمقني عن هذه الهفوة — التي لم يكن في الوجود وسيلة لغفرانها إن كنت وقعت فيها — إلا منظر رجل غريب الأطوار أخـذ يحدق في الحقيبة ويريد أن ينقض عليها كالباشق؛ ولم يمنعه من خطفها وإلا نظرة سريعة ألقاها على حقيبة صفراء أخرى كانت في يده ، وقد وضع عليهـا الفاحص الجركي حرف P علامة الإذن بالمرور — فلما خفت أن يخطفها ذلك الرجل، لمجرد الطامع فيها لماثلتها لحقيبته تحركت رغبتي في الاحتفاظ بها ، لا لأنها ملـكي وتحتوي ما أحتاج إليه في حلي وترحالي ، بل ضناً بها على الطامع . وخرج الأخرق صاحب الحقيبة الصفراء وخرجت في أثره أتمطى ، وأنا لا أعيره اهتماماً ولا أجعل له أقل شأن . وكان كل اهتمامي واكتراثي وانشغال بالي وحسابي وترقبي محصورة في لقاء (جوتي) التي أرسلت إلى تقول إنها في شارع ڤيوجرينادييه(١) وعندما صرت في نهاية الأفريز خطر ببالي أن أشترى جرائد الصباح ، فلتُ إلى معرض الـكتب والصحف الذي تتعهده فتاة شقراء ، وأخذت منها ما أشتهي ودفعت ثمنهـا باسماً للحسناء البائمة ، فابتسمت هي الأخرى وقالت في صوت خافت :

« موسيو إيه تريه جانتي » أي إنك ظريف ياسيدي . فلمحت زنزانة التليفون بجوارها وخطرلي أن أبحث عن وسيلة تصل بيني وبين جوتي قبل أن ألقاها ، فما أحب أن أفاجيء الحبيب أو العدو . ولـكنني لم أعلم كيف أخاطبها فتجاسرت وتحاملت على المصـادقة والحظ ودخلت وحصرت نفسي وأخذت أبحث في دليل التليفون وأقلب صفحاته وأقرأ الأسماء والألقاب والأرقام والشوارع والأزقة وأغرق بين الأسطر ، وأسرح بخيالي دون أن أشعر وأدفع بالدرهم بعد الدرهم في خرق ضيق ، وأسأل مراكز المخاطبات ـ ولا أدرى كم طالت وقفتي ـ وعندما خرجت وألقيت نظرة على وجه بائمة الصحف الشقراء ، رأيته ممتقماً وقد مدت إليَّ يدها بورقة مطبقة ، وكانت حركة الحياة في المحطة لا تزال ضئيلة لبكور الوقت — ففتحتها على مهل ، وأنا أظن الفتاة الطائشة تستدرجني إلى موعد فإذا فيها أن رجلاً طويلاً أسود الشعر يتعقبك ، وقد عاد يبحث عنك كالمجنون وهو يحمل حقيبة صفراء، وقد ضللته حتى لا يقع عليك بصره . فانزل إلى الممر السفلي لتصعد في شارع مونبلان فلا يدرك خطاك ؛ وهو الآن في المقصف. فانحدرت في الطريق الذي اختارته لي وأنا بجنيف جد خبير ، وأطمت الشقراء بائمة الصحف وعملت برأيها لشعوري بعاطفة الحنان تنمو في قلبها نحوى ، كما أن منظر الرجل الطويل المجهول لم يَرُقها ، ولعله أزعجها كما أزعجني . وفي تمام الساعة التاسعة كانت قوتي خارت من الجوع الذي يعقب

(١) رماة قنابل اليد القدماء — واسم قنابل اليد ماخوذ من الرمان للمشابهة

السفر الطويل ومن تعب الأرق الذى يصحب اهتزاز القطار . وللمرة الأولى رأيت باب الفردوس مفتوحاً أمامى . وما الفردوس سوى « أنديا هاوش » مشرب الشاى الشهير ، وفيه من الفطائر والحلوى والزبدة والفشدة والشهد مايعجب الأعين والأفواه ، فدخلت إليه وأفطرت إفطاراً فخماً ، وكان أول مال أنفقته على سد رمقي من مال الوثائق المفقودة

وكان بجوارى رجل يجرع الشاى الهندى المجيب ويقرأ جريدة « جورنال دى جنيف » وهو يقلب كفاً على كف كمن خسر مائة ألف فرنك فى سوق القراطيس المالية . وكان يخالسنى النظر كأنه يريد مهاجمتى في حصن صمتى ، وكنت إذ ذاك مشغوفاً باستطلاع أمور الناس لا سيما كل من كان غريب الأطوار مثله ، فابتدرته قائلا :

— حقاً أن هبوط الأسعار فى سوق الأوراق لكارثة لها ما بعدها . ولا تنس أن أمريكا هى البادئة بالاخفاق فى المضاربة ، وغداً يصير أرباب الملايين وملوك المعادن عالة على العمال والفلاحين

فبدت الدهشة على وجه جارى الذى كان يتجرع الشاى الهندى وقال :

— نعم ؟ هل تتحدث إلىّ ياسيدى ؟ فدبت خجلاً واستحياء ، ولكنني تذكرت أن مهنتى تحتاج إلى سفاقة الخد وبرود الطبع وتحمل الأذى ، فاستجمعت فلول شجاعتى التى شتت شملها سؤال الرجل وقلت : نعم إليك ، لأننى أدركت أنك تفهم جيداً قيمة القراطيس وتحمل همومها . فقال متعجلاً متعمداً مقاطعة حديثي :

أى قراطيس ؟ أنا أندب حظ العالم ، لأن شبح الحرب يختفي شيئاً فشيئاً ، وحمامة السلام « بسلامتها » تطل من وكرها المملوء بالثعابين والأفاعى ...

فدهشت وأيقنت بجنونه وخوفه ولوثته وقلت : أظنك تريد عكس ما تقول ، وتمدح السلم وتقدح فى الحرب . فألقى الرجل جريدته والتفت إلىّ محدقاً وقال : وأنت سخيف آخر تمجد السلم وتنفر من الحرب . ألا تعلم ياسيدي أن السلم إذا ظلت فى الأمة دهراً لم تلبث أن تتسلط فيها المآرب الشخصية الحقيرة والأغراض الدنيئة المريضة ، وتقوم الفتن والمكايد ، ويمحو الترف آثار الكمال الاجتماعى ، ويحتكر المال قوة متطرفة غير شريفة ولا مشروعة ، ولا تجد الشخصية الكبيرة الاحترام اللائق بها ؟ إن زهرة الانسان لتذبل ، وجذوره لتموت ، فى زمن السلم وعهده ، وتذوى الشجاعة وتحتضر فى ظلال الراحة وخمائل السكون . إن الهدوء والمساواة والطمأنينة (التى تجعل الناس أنداداً وأشباهاً) للهاة العاجز ... ولكن الحرب تظهر شجاعة الرجال وتعلى النفوس الوضيعة ، وإن الجبان والرعديد والخائف والمرتجف (ونظر إلىّ نظرة قاسية كأنه يقصد إلىّ بهذه المخازى ليتنامى اسمه خيال حماسة الحرب

فقلت له : أنا على رأيك ، ولكن لاينبغ عن فطنتك وأنت بسمارك هذا الزمان أن الحرب التى تشيد بذكرها ، وتتحرق فى انتظار اشتعال نيرانها تجر فى أعقابها نكبات مادية وذهنية ؛ وترعب قلوب الناس والملائكة ، ولا تطرب بدويها إلا أهواء الشياطين والمردة التى تعردها الفظائع الوحشية التى تقع فى القتال

فاندلع فى عيني محدثى لهيب عجيب وقال :

— لا شك أنك تنتمى إلى بعض ذوى تلك

الألقاب الكاذبة ، والمراتب الجوفاء التي تربت في أحضان السلم ورتعت في بحبوحة الرخاء زماناً طويلا. فأنت وأصحابك تخشون الحرب لأن الشخصيات الكبيرة تحل فيها المحل الأرفع ، وتخطو القوة والاخلاص والصدق والشرف إلى الطليعة لتلعب دورها الواجب ، ويتجلى الثبات والعطف والعظمة والبطولة والرحمة والاحسان

فضحكت ضحكة كادت تفقد الرجل صوابه وتخرجه عن دائرة الصبر ، ولكنه تجلد وأخذ يحرق الأرم ويمضغ لسانه فقلت له : والهزيمة ؟ الهزيمة ياسيدى، ألا تذهب بجمال ماوصفت الهزيمة النكراء، خيبة المغلوب وإذلاله تحت أقدام الغالب ؛ هل نسيت قول القائل :

« ويل للمغلوب ! » فكان الويل للغالب ؟

فقال الرجل الذى يتجرع الشاى :

حتى الهزيمة ! الهزيمة نفسها فيها ثمرات غالية سامية ، فهى وإن ساقت غالباً الضعف والبؤس والشقاء ، مؤدية كذلك أحياناً أخرى إلى إحياء جديد وانتعاش قوى ، لاسمة للفتور أو العلة فيه . وهى كذلك واضعة أساس نظم حيوية جديدة . قلت له : إذاً لا أخطى إذا ثبت فى ذهنى أنك تناهض أمانى السلام التى تتردد فى خواطر الأمم : فقال حبيب الحرب :

يجب أن نقضى على تلك المذاهب الخيالية الواهية الواهمة ، ويجب أن نشهر بها أمام الناس ونفضح أمرها ونعلن حقيقتها ، وإنها فكرة خيالية ضعيفة عليلة طائشة ، بل ثوب من أثواب الرياء السياسى وحجاب من حجبه . ينبغى أن يعلم الناس فى كل مكان أن بقاء السلم لن يكون غرضاً للسياسة العالمية بل يجب أن نكرر ونسهب فى فضيلة الحرب ونُعاها ووجوب وقوعها والمثل العليا التى تنطوى عليها . ينبغي أن نلقى فى وجوه « رسل السلام » ودعاتها شعراً قديماً :

« أأحلام بالسلم وعهوده ؟ ألا فليحلم به من يشاء ، أما نحن فليكن صراخنا الحرب ! الحرب ! وهلموا إلى النصر » وأظنه لجوته

ونهض الرجل بعد أن ألقى بالجريدة وألقى علىّ نظرة استصغار شفعها بتحية: «عم صباحاً ياسيدى » كانت أقسى من السهم وأحد من السيف وأوقح من الصفعة على صدغ اللئيم . وقد أردت أن ألحق بالرجل وأطلعه على حقيقة شخصى ، وإننى من طلائع الحرب المقبلة ، لا من دعاة الهزيمة كما وَهِم وتخيل . وقد نهضت وحاولت النداء عليه ، ثم عدت فتذكرت أننى من رجال الخفية ، وقد وكل إلىّ عمل دقيق ، وإن فى جيب صدارتى غلافاً مختوماً مشتملاً على الأوامر والنواهى التى سأخضع لها حين أفض الغلاف وأتلوها وكأننى أتلقاها من رئيس مطاع. ومن يدريني أن هذا الرجل الذى وقعت عليه مصادفة لم يكن هو نفسه من أعينهم ومن آذانهم؟ والحمد لله الذي أطلعه علىّ فى ثوب رجل مسالم ، مبغض للحرب فراح يحتقرنى ويزدريني

ثم رفعت عينى إلى الساعة الكهربائية الدقيقة التى تنبض عقاربها بتيار متحد يحرك عقارب سائر الساعات المعلقة فى أفرع «أنديا هاوس» فى نواحيات المدينة كافة . وكانت العاشرة فنهضت ودفعت الحساب بين يدى الصيرف . ولما صرت فى شارع مارتن لوثر الحاذى لساحة بوليفار قفزت فى سيارة وقلت للسائق بصوت عال : إلي باستيون (وهو بستان عام فى ميدان ملعب الكوميدى يؤدى إلى الجامعة — وكانت غايتى أن أضلل أى رقيب قريب

وأن أسير على قدمى من حديقة باستيون إلى شارع ڤيو جرينا دييه حيث تقطن جوتى . وفى أقل من خمس دقائق بلغت بى السيارة باب الحديقة فترجلت ودفعت وأخذت سمتى إلى مقهى «كاتر كوان دى ڤان» الذى يتوسط الساحة ويشرف على الشوارع الأربعة كادروج و كوراترى وجنرال ديفور وفيلوسوف(١) وشربت قهوة سوداء ، لا تشوبها قطرة من الحليب الذى لا يشربه إلا الأطفال والنساء . ثم قمت أسير متلكئاً وكأنني نسيت الحب الشديد الذى كان يملكنى من أثر الحوادث التى رفعت الأقدار غطاءها منذ نزلت من القطار في المحطة

كان شارع ڤيوجرينا دييه فى هذه الساعة الصباحية هادئاً فنظرت إلى الرقم الملق على الباب؛ فلما أخذ بصرى بعدد ١٧ خفق قلبى ، وأسرعت بالتصعيد فى الدرج . ودققت البـاب دقة لطيفة ففتحت لى خادم عجوز ما رأتها عينى قط؛ فسألتنى عن طلبي، فلما ذكرت لها إسمي أغلقت الباب فى وجهى حتى تخبر مولاتها ثم تعود إلىّ فتأذن لى أو تطردنى . فشعرت بحزن عميق وأحسست المهانة تحز فى قلبى كالمدية ، وصممت أن أطرد هذه الجحمرش جزاء على أنهـا أقفلت الدرفة فى وجهى ، حتى كأنني لا أؤمن على نظرة خلال المواربة بين درفتين، فوقفت مشبوهاً شارد اللب ، لاأدرى كيف أعلل ماحدث. وقامت في ذهنى عاصفة هدارة من الأفكار المضطربة. وبقيت فترة الانتظـار ودمى يغلى فى عروق وقد صممت على ألا أصبر على هذه الذلة ولو عدت أدراجى ، فرفعت بنيقة ممطفى حول عنق ، وأدرت وجهى لأهبط الدرج كما صممته ، وإذا بيد قوية تقبض على ذراعى فرجعت بعيني فاذا جوتى خارج الباب بوجه باهت ممتقع ، وجسم مرتجف ، وهى تقول : أنت ؟ تقف بالباب وتنتظر الاذن بالدخول ؟ فأخذتها بين ذراعى وجففت بيدي دموع الفرح التى ذرفتها عيناها

* * *

من العبث أن أصف لك ألوان السـعادة التى تذوقتها فى عشرة هذه الحبيبة الولهى ، التى بدأت تشعرنى بالهناء العائلى وتسكب في شغاف قلبي أفاويق السرور واللذة، وتسكرنى برحيق حبها وحنانها حتى كانت الدموع تنبجس من عينى كلما فكرت أن سعادتنا هذه موقوتة وموقوفة على سفرى لمطاردة ذلك الوغد المحبوس المحاصر بين مدن ست ، لا يملك النفاذ من آفاتها . لم تقف جوتى على شيء من أسرارى ، ولم تعلم مقدار ما أحمل من النقود، أو نوع ما أخفى من السلاح ، أو عدد ما أملك التقمص فيه من الشخصيات . فكانت إذا سألتنى عن سبب حضورى المفاجئ قلت لها : لأحضر دروس الجامعة فى مدرج الغرباء ، وأرقب أعمال جمعية الأمم عن كثب ، ولا أريد أن أرى أحداً سواك ولا وجهاً غير وجهك ، ولا أتناول طعاماً إلا ما تمده يداك وتطهينه بنفسك ، ولا أنظر فى عينين غير عينيك ، ولا أنعم فى الليل والنهار بجسم غير جسمك، ولا أسمع صوتاً غير صوتك ، ولا أشعر بسعادة غير التى توحيها رقة شمائلك، وذلك إلى أن يحين وقت عودتى إلى مقر عملى فى فيرنزة . وكانت جوتى تحسبنى لا أزال فقيراً ، فكرست وقتها ومالهـا لتوفير راحتى وهى لا تسألنى شيئاً ولا تحاول الوقوف على دخيلتى . فقلت فى نفسى : إن فى النسـاء الهامات وأحاسيس خفية تنفقدها نحن الرجال فى نفوسنا فلا نجدها ،

(١) فى خريطـة جنيف التفصيلية شارع إسمه بولفار دى فيلسوف ، وهو المؤدي من الساحة إلى الجامعة

والمرأة مسلحة من كل جانب ، وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً ، فلعها تعرف كل شيء وقد تعرف أكثر مما أعرف . من ذلك أنها كانت قد أعدت لى عدة زينة وحلاقة وعطوراً ، حتى الباذل وثياب التفضل (وكانت من صنف غالٍ) . وهذا الذى حدانى لاهمال حقيبتى الصفراء ونسيانها مهجورة فى أحد أركان غرفة النوم الأنيقة التى أثثتها حبيبتى وقسيمة روحى ، ووصلتها بهو الجلوس والمطالعة ، وزينتها كل صباح ومساء بالأزهار اليانعة ، ووضعت فى إحدى زوايا البهو مذياعاً صغيراً بحجم اليد ، ولكن صوته كان كصوت الجن قوة ، فشبهته بفمم يحتوى عفريتاً ينشد ويلهو ويضحك ويختلس الأخبار من أقواس الدنيا وأقطارها ليرويها لنا . وفى إحدي الليالى قالت لى جوتى بعد أن خرجت من الحمام وعصبت رأسها برباط من الحرير الأزرق وبدت عيناها اللوزيتان بلون الزيتون الأخضر القاتم وليونة القطيفة الناعمة :

— نفسى تحدثنى أننا لن نفترق بعد هذا اللقاء ، وأن الحياة ستجمع بيننا إلى آخر العمر . وقد تعودت من نفسي أنها لا تخدعنى ولا تكذبنى

ثم أخذت تمر أصابعها فى شعر رأسى فى خفة وسرعة

فضحكت على الرغم منى لعلمى بما تبطنه الأيام لنا من فرقة ، وإننى قد طرت إليها خلسة ولحقت بها طيشاً ورغبة فى اقتناص أيام معدودة ، قبل أن يستحيل اللقاء علينا . ولن أغادرها حتى أترك لها نصيباً من المال يكفى لنفقتها أعواماً حتى ولو اشتعلت نار الحرب ودامت أمداً ، ولكننى لم أشأ مفاتحتها بشيء من هذا لترسل أقوالها وأفعالها على سجيتها ، فقد عشت أعواماً طويلة وجدت خلالها إن قلب المرأة عميق ، لا يمكن ارتياده ، وسيظل هكذا إلى الأبد . وكنت أنظر تارة إلى نفسي وما يجول بها ، وطوراً إلى وجه جوتى الحرى الهادئ الجميل الندى فأشعر بالحزن وتأنيب الضمير حيال كتماني وصراحتها . وكانت جوتى لا تحول عنى عينيها كأنها تحاول أن تلتهمنى بهما

وفى تلك الليلة طرق بابنا للمرة الأولى شيخ مسن عرفته جوتى من أبناء وطنها فدخل كاشفاً عن رأسه الجميل الممتاز وشعره الأبيض المتموج ، وقد حمل نفسه فى خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره ، فشرب الشاى وتسمى باسمه المنتحل جيروم بادواسكى وتكلم فى الأدب والسياسة والفنون والتاريخ إلى أن دنا من موضوع الحرب المقبلة فبردت عروقى وتفككت أوصال مفاصلى ، لأن الحديث أعاد إلىّ ذكرى مأموريتى التى سوف تشتت شملى وتهد دعائم البيت الذي بدأت أحبه وآلفه وأركن إليه فى نومى ويقظتى

قال الشيخ المسن :

« إن الحرب يا سيدى لا شك مقبلة ، وإنى أراها بعين الخيال تهرول مسرعة إلينا تخب خبباً مرعباً فى دروع من الحديد والنار وقد ربطت رأسها برقعة ملطخة بالدماء ، أكاد أسمع قعقعتها ، وأرى لهب مدافعها جاءت لتخيط خيطتها الأخيرة . أتظن الجوع أو التناحر على السلطة يسبب هذه الكارثة الشوهاء ؟ كلا إن سببها الفروق بين الطبقات والنفور المستحكم بين العامة والخاصة ، وكلاهما راجع إلى زهو الأغنياء من جهة وخشونة الفقراء من جهة أخرى . والاختلاف فى التربية أكثر فى التنفير من الاختلاف فى الثروة . أما نحن الروس فقد رأينا فى شبابنا هدم بعض النظم المعطلة للتقدم الحقيقى الدين والحياة

الزوجية والامتلاك والحكومة المركزية

فقلت مندهشاً للشيخ المسن : وكيف تعيش الانسانية بدون هذه الدعائم العريقة القويمة وهي بمثابة العُمُد المسلحة التي تحمل السقوف العالية وبدونها ينهار البناء ؟

فابتسم الشيخ وقال : أما الدين فيجب عندنا أن تقوم على أنقاضه العلوم العصرية ؛ وأما الحياة الزوجية فيجب أن تستبدل بالاتحاد الحر بين الذكر والأنثى ؛ وأما الامتلاك فبالاشتراكية ؛ وأما الحكومة المركزية فبمجموع ولايات مستقلة .

كانت هذه أحلامنا منذ خمسين عاماً ، فلما تحققت أسفنا أشد الأسف ، لأن الحقيقة لم تنطبق على الخيال. وقد جنت علينا الفوضى أشد من جناية المظالم ؛ وإن نفسي تحدثني أن أكتب قصة كتلك التي كتبها مواطني وصديقي تشرنشفسكي . فقالت جوتي : آه شتو د يالاتي ؟[1] إن الأفكار الثورية قد استحوذت على جميع الطبقات والأعمار والصناعات والمهن هنا في سويسرا وفي أوربا الغربية بأسرها ، حتى لندن وباريس وروما الفاشستية وبرلين التي يحكمها هندنبرج ، في كل مكان تعلن الثورة جهاراً في الطرق ، وتلقى علانية في الشكنات وتذاع في إدارات الحكومة ومصالحها ، بل إني لأعتقد أن الشرطة أنفسهم يغضبون لها ويثورون »

لقد كان كلام الشيخ المسن عجيباً مزعجاً ، حتى لقد شعرت أنني أخون وظيفتي وأنا أصغي إليه ، وإن كنت أستطيع أن أصفه بالخرف لأتخلص من وزره ، ولكن غاظني أن جوتي تعرف أمثاله وتأويهم وتسقيهم الشاي . ولكنني لم أملك أن أقطع حديثه ، وصممت في نفسي أن أفاتحها بعد انصرافه في ضرورة الخلاص من تلك الصداقات المريبة

وشرب الشيخ المسن چيروم بادولسكي أقداحاً من الشاي ، وكأنها مترعات خمراً معتقة صفراء يسكر بها فقال :

— كان الشاب منا صلب المكسر ثابت الجنان رابط الجأش متأهباً لتحمل التضحية في سبيل فكرته ؛ وكنا نتزيا بزيّ العمال لندخل في ديننا الطبقات الجاهلة من العمال والزراع ونسر لهم في آذانهم أن الواجب أن يتخلصوا من موظفي الحكومة ومُلاّك الأرض وهم أسباب الحالة الحاضرة التي آلت إلى أشد الفساد وأنكر الفوضى.

وهنا دق الباب دقاً عنيفاً ، وكان قد مضى على إقامتي في الدار أربعة عشر يوماً ، ولا يعرف مخلوق اسمي وعنواني سوى عامل مكتب البريد في يلا نيليه فقد أفضيت إليه بهما لأنني كنت أنتظر إشعاراً من خدمة النقل البخاري « من الباب إلى الباب » التي عهدت إليها في توصيل حقائبي من فيرنزة إلى جنيف ؛ ولم أكن أعلم أن عادتهم أن يفاجئوا عملاءهم في أي وقت من أوقات الليل أو النهار فانتفضت ونظرت إلى جوتي نظرة لم تفهم معناها . وتخيلت الرجل المجهول الطويل الذي تعقبني في المحطة ، ثم البحاثة الصاخب الذي يريد الحرب مهما كلفت شعوب الأرض من عناء وبلاء وهلاك ؛ ولم يخطر ببالي غيرهما ، حتى ولا رئيسي الذي أباح لي « بطاقة بيضاء » في المال والوقت والتدبير. ونهضت جوتي إلى الباب وسمعت الفتح والهمس ، ثم خطواتها وهي تعود حاملة بياناً بحقائبي التي كانت في سيارة بأسفل الدار فحملها الرجل ونقدته الحلوان ولم تقل له أكثر من أحسنت بالمبادرة فقد كنا في الانتظار

(١) بالروسية ماذا نحن فاعلون ؟

وقد رأى الشيخ المسن أن ينهض فقالت له جوتى : لا تقل إلى اللقاء بل الوداع يا عزيزنا جيروم فقد صحت عزيمتنا على السفر ، وها هى الحقائب قد أعدت وأنت تراها . فهز الشيخ يدها واغرورقت عينه اليمنى بدمعتين جالتا ولم تذرفا وقال والعبرات تخنقه :

— ها هو البيت الأخير الذى كان يأويني ويظلني يقفل فى وجهى إلى الأبد . فنظرت جوتى إلىّ ورأت تأثرى وقالت : اننا لن نلبث أن نعود فلا تبتئس ياصديق .

قال : تعودين ، ولكن هل أكون هنا ؟

— أتنوى السفر أنت أيضاً ؟

وخيل إلى أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت فى تلك السحابة من الدموع التى تطفر من عينيه وقد أجاب :

نعم : قد أسافر ... سفرة بعيدة جداً جداً . لا يعود منها أحد قبلى ولا بعدى .

ولما نزل جيروم وغاب صدى وقع أقدامه ، عادت جوتى وكانت تودعه ، وجلست على الأرض أمامى ووضعت رأسها فى حجرى وبكت وكنت أفهم بكاءها وأندم على انني سببته ، ولكننى فى الحق اتهمت نفسى بغير جريرة . فقلت لها لم تبكين ياجوتى ؟ ألأن وصول هذا المتاع فى الحقائب قد يكون نذير الفراق ؟

قالت : كلا إنك باق بجانبى إلى النهاية . ولكن أبكى لأننى أقفلت بابى فى وجه هذا الشيخ المسن المسكين الذى ليس له أحد .

— وما الذي دعاك إلى اختراع فكرة السفر ؟

— لأننى لمحت أثناء حديثه أنه لا يروقك ولا يرضيك وقد يقلل من سعادتك أن يمشي مجلسنا من وقت إلى آخر .

فلم أملك حيال إخلاصها الا أن اعترف لها بالواقع وألتمس الاعذار لنفسى .

وعدنا إلى السعادة نقتطف ثمارها الدانية ، وأنا واثق انها أيامى الأخيرة فى عالم الهناء الصافى من الأكدار . وكنت أشبع رغبات جوتى ، وأقرأ صحف الأخبار ، وانتبع أحاديث المذياع المكذوبة لأستخرج الصدق من بين ثناياها ، وأتلقف أنباء عصبة الأمم التى كانت فى ريعان شبابها والسقم يدب فى مفاصلها ويعجل بالقضاء عليها لحسن نية والديها وعاشقيها وخاطبي ودها الذين دسوا لها السم فى الدسم . وكنا حينما نلهو باخراج الثياب والكتب من الحقائب ونصفها فى الصناديق والأدراج لنوهم أنفسنا بأننا باقون فى الدار بقاء استقرار وإقامة .

وكانت هذه البلهاء جوتى تضحك فى وجهى وتطيل النظر إلىّ وتقول :

— أعطني طفلاً يشبهك ! لا تغادرنى قبل أن ألد لك ولداً . فكنت أضحك من فكرتها وأعجب كيف تحدثها نفسها بهذا الخاطر . ولما كانت جوتى واسعة الخيال وشديدة التعلق بالكتب كانت تداعبنى حيناً قائلة :

— أريد نسخة طبق الأصل منك بلا تنقيح . ألا ترى أن المطبوعات الأولى هى الأصيلة الغالية لأنها نادرة ؛ لقد كنت متعطشة للقائك ولا أستطيع صبراً على بعدك

فقلت لها : وإذا أرغمت على السفر ؟

قالت : قد توافق عزيمتك ماجمعت عليه نيتى لأنه ليس فى سفر الانسان مفرداً أية لذة . إن لكل إنسان حقاً محدوداً من السعادة ، وإن مثلى ومثلك خليقان أن ينالا حظاً من السعادة وقتاً ما ، فليكن من الآن فصاعداً

وقد اتكأت على جسمي بجسمها اللين اللدن وقالت :

لقد طار إليك قلبي مرفرفاً وكلما زدتني اتصالاً زدت اشتعالا ، إنني لا أرتوي ولا أقنع . في وسعي أن أعرف السبب ، إنني لا أشبع منك إلا إذا اطمأننت إلى بقائك بجانبي

وكنت في تلك اللحظة أقرأ دبلي ميل التي كانت تنشر في أعمدتها رسائل « قلمنا الخاص » . فوقع بصري على هذه الرسالة الغامضة « إلى رجلنا في ا و ك و ش و ت و س و ا و د . إن أملك المنشود لدى امرأة مديدة القامة سوداء الشعر ، وحارس الكنز يحمل حقيبة صفراء لا تفارقه . كل شيء بشأنك على ما يرام فاتبع خطة السير التي ترسمها لك الكواكب السيارة »

فذهلت من غموض الرسالة أولا ، ثم رأيت بارقة الأمل في حل رموزها . وكانت جوتى تتابع حديثها قائلة : إن الحب يجعلني كالريح والمطر والبرق والرعد وأنت كذلك ، فظللت كالمشدوه

وأخذت جوتى تتأثر في الحديث الذي أيقظها به الحب العنيف

وأخذت تسرد على مسامعي قصة حياتها . وكانت تحدق فيّ بقوة متجهة بصدرها وخصرها إليّ ، ثم إذا هي تعانقني بعنف ولهفة وتنهد . ففكرت في مخرج من هذا الموقف حتى يعاودني هدوئي . فقلت لها : إليك هذا اللغز ، أتعرفين كيف يكون حله ؟ وقرأت لها الرسالة الغامضة فأصغت إليها في سمت عميق وقالت : وما يهمك من أمر هذا اللغز أو الرسالة الرمزية ؟

قلت : تسلية محض ، لا أكثر ولا أقل

قالت : إن المقصود بالمرأة المديدة القامة رجل مثلها ، والرجل الأول هو بلاريب رسول أو وكيل أو منتدب ، والكنز أوراق أو وثائق ، لأن الحقيبة لا تحتمل أكثر منها ؛ أما الكواكب السيارة فهم الرؤساء المتنقلون . وأظن هذه الرسالة من الخدمة السياسية السرية في إحدى الدول العظمى ، أما حروف الهجاء فهي أوائل أسماء بعض المدن ، فلو أنها حددت لرجل لوقف عليها . فتناولت خريطة لأوروبا الوسطى وتركتها تضع يدها على البلدان فأخذت تقرأ حتى ذكرت انجلترا وكيلوز وشامبيري

ولكنني كنت غبياً فلم أفهم شيئاً . وقد أحسست بحرارة تسري في جسدي ، ولعل الحب الشديد الذي شعرت به فجأة جعل على بصري غشاوة فأخذت أنظر في سكون إلى ذلك الجسد الرطب الممدد على ركبتي وصدري !

فقالت : هل فهمت شيئاً ؟ إن الرجل الذي تقتفي الخدمة السرية أثره في إحدى دول الوسط يحمل وثائق ثمينة جداً في حقيبة صفراء وهي تنبه رسولها لصفاته وتطمئنه ... ثم اعتدلت في جلستها وأخذت يدي في راحتيها ونظرت إليّ نظرات شاردة وقالت : كأنني أكتب في لوح مكتوب أنك أنت المقصود بهذه الرسالة ، وأن هذه الوثائق أمامك وملك يمينك ، وأنك لن تتكبد في الوصول إليها مشقة لأنها عندك وتحت يدك . ولكنني مجنونة أية علاقة بينك وبين الخدمة السرية في الدول ، في هذا الجو القاتم الملبد بغيوم الحرب ؟

وقبل أن أتمكن من القول لها : استمري في قراءة هذا اللوح قالت لي :

— إني أحبك ! إني أحبك ! إني أحبك !

وجذبتني إليها وأنا مستسلم لا أتحرك وعانقتني ثم دفعت نفسها إليّ في قوة وقالت : آه ان اللوح يختفي عن عيني شيئاً فشيئاً . إن حبك قد علمني قراءة الغيب ، وفي تلك الليلة على الرغم من اشتعالنا

بنار واحدة لم أستطع الدنو منها

وعند شروق شمس الغد، نهضت جوتى وقالت: إن نفسى تاقت لنزهة قصيرة فى إيفردون أوفرسوا، ولكن البحيرة لا توافقها فهى تفضل سكة الحديد، فرضيتُ اقتراحها . وإذ كنا على الأفريز حانت منى التفاتة نحو مستودع الصحف والكتب والفتاة الشقراء الباسمة ، فدنوت منها واشتريت حزمة من المطبوعات الطازجة التى تحمل عبق المداد ، وعطر الأشجار التى صنع الورق الغض من جذوعها وفروعها . فلما دفعت لها الثمن قالت: آه سيدى! لقد أوذيت لأجلك، ولكننى لم أبعك، فان الرجل الطويل الأسود الشعر الذى كان يقتفى أثرك منذ شهر عاد يتهمنى بتضليله ، ويسألنى إن كنت رأيتك تحمل حقيبة صفراء بيمينك. فقلت له: إن الحقيبة الصفراء كانت بيمينك أنت، ومارأيت معه شيئاً فلم يصدقنى، وزعم أنى تسترت عليك حين استبدلت حقيبته بحقيبتك ، وشكانى لرؤسائى ، ولكنه عجز عن تقديم الدليل على صحة زعمه ، وإنى أخاله ذا قيمة عالية ، لما رأيت من اهتمام الرؤساء بشأنه ، ولكنهم يسمونه دائماً موسيو إس S فهل هو سوفاج أو سيربان أو سراسان ؟ (١)

وكانت جوتى تسمع طرفاً من الحديث ، دون أن تشعر الفتاة بصحبتنا. فلمافرغت الشقراء من ثرثرتها المذبة قالت جوتى: ألا تزال مصمماً على نزهة فرسوا ؟ أما أنا فلا ، لأننى شعرت بدوار مفاجىء ، ولابد لى من الرجوع إلى البيت لأعالج صداعى باستكمال النوم حتى الظهيرة أو بازدراد جرعة من البروميير المسكن

فقلت فى نفسى : هكذا النساء يعترضن ويقلقن راحتنا ثم يعدلن عن فكرهن فيظلمن الرجال ...

وكدت أغضب ، ولكننى كظمت غيظى ، لولا أن ابتدرتنى بقولها : لن تندم على عودتنا بقدر ما كنت تندم لو أصررت على نزهتك ... فلم أملك نفسى وقلت لها :

— نزهتى أنا أم نزهتك أنت ؟ ما أقبح ماعليه بعض النساء من غباوة مرذولة . أما عندهن إحساس بما يلائم معقولية الرجل المتحضر من الجنس الأبيض ... أما إلى ذلك من سبيل ؟ لعلك تظنين أنى جننت بحبك جنوناً يحملنى على طاعتك فى السفر والاقامة

فابتسمت جوتى وقالت : لم أراك غاضباً غير هذه المرة ... ما ألطفك فى سخطك؟ أتعرف خرافة الأم التى قتلت الكلب الذى كان يحرس ولدها حين رأت خياشيمه ملوثة بالدماء

فنظرت إليها فى كدر شديد وقلت : إن ما أعرفه ولا أجده ، وأبحث عنه ولا أعثر به ، هو الحياة الهادئة التى لا يسمح الزمان بها

وكنا بلغنا الدار ، فلزمت جوتى فراشها مريضة أو متمارضة ؛ وعند ما أفاقت حوالى الظهر صرفت الخادم العجوز ومنحتها أجازة نصف يوم . ثم قالت لى إنها لم تتعود أن تتجرع أدوية من الصيادلة ، وخير لها أن تبحث فى الأدراج والصناديق والعلب القديمة ، وجلست بجوارى على السرير وأخذت تداعب شعرى بيدها فملت عليها وقبلتها ، ولكنها مالت عنى بسرعة وقالت :

— أتأذن لى أن ألتمس دواء فى إحدى حقائبك المهجورة

فقلت : أتحتاجين إلى سؤالى وإذن ؟ ماذا جرى ؟ وكيف انقلب المذر حقيقة ؟ فنهضت جوتى إلى غرفة نومى ثم عادت تحمل الحقيبة الصفراء التى

(١) أهو وحشى أم ثعبان أم بدوى وكلها على حرف S

لم أرها منذ وصولى وقد استغنيت عما تحتويه بما أعدته لى تلك الحميمة الحنون

ففتحتها ... ثم نظرت فيها وأطالت النظر ... ولم تمد لها يداً ...

فنظرت بدورى ... فلم أجد مباذل ولا أدوات حلاقة ولا مرآة ولا قنانى عطر . بل أوراقاً ودفاتر فى أشكال شتى ومصورات وخرائط وأشرطة فوتوغرافية وألواحاً زجاجية ورسوم مواقع وحصون وتصميمات مدافع وطائرات وغواصات ، وجداول إحصاء ورموز كيمائية وخرائط جوية ...

فقالت جوتى : هل هذه أدوات الزينة ، أم محتويات الحقيبة الصفراء التى لم تكن تفارق الرجل الطويل الأسود الشعر ، وقد وقعت فى يدك خطأ يوم وصولك مدينة جنيف ؟

فأشرقت الحقيقة فجأة على ذهنى وارتبطت حلقات الوقائع ببعضها البعض حتى صارت سلسلة متينة . لقد نقلت الأقدار تلك الوثائق بحقيبتها من يد صاحبها إلى يدى أثناء تغيير القطار فى دوسو دوسولو أو أمبريو . ولعله وضعها بجوار حقيبتى وغفل عنها مدفوعاً بسرعة النزول . وهكذا حلت لى الأقدار ما كنت عاجزاً عن حله إلا بشق النفس وتكبد الأذى ؛ وإذن صحت نبوءة جوتى ، إن الدهر لن يفرق بيننا . فنظرت إلى وجهها فوجدته قاتماً فقالت :

— عند ما سمعت حديث بائعة الصحف أيقنت أن الحقيبة الصفراء المهجورة هى حقيبة الرجل الذى وصف فى عمود الأسرار فى « ديلى ميل » فسارعت بالعود متمارضة خشية أن تسرق أو تختلس أثناء غيبتنا فى إيفردون أو فيرسواه . ولكن غيظك وغضبك وسخطك مما لا أتحمله . وقد قتلت الحب فى مهده وأطلقت لسانك بكلمات مزعجة ما كان لك أن تتسرع بالتلفظ بها كما تعلم ، ولكنك لم تتمالك نفسك . فهذا فراق بينى وبينك ...

وعبثاً حاولت مصالحتها والافضاء لها بسر مهنتى ومكانتى فى الخدمة المخصوصة ، ودفتر الحوالات الذى أملكه ، والمال الذى لا حد له ، والاجازة الطويلة التى نلتها ، وان الانتفاع بهذه النعم راجع إلى فطنتها وسرعة بديهتها ، وحسن الحظ الذى لازمنى منذ انتويت السفر إليها قبل أن أباشر عملى . وقد اطلعتها على جفر المراسلة وملاحن الحديث[1] وقانون المخاطبة السرية ، ووقفتها على أمور لو علم رؤسائى أنى أذعتها لم يكن يكفيهم قتلى بالرصاص عقاباً عليها ، ولكن قلب جوتي الذى كان يتفطر شوقاً إلىّ إن غبت عنها ساعة أمسى كالجلمود وقالت :

— لم يسؤنى شىء كما ساءنى طرد الشيخ المسن جيروم باودلسكى ، وهذا ثأره تقتص له الطبيعة منى ، لأننى أقصيته وحرمته المأوى فى كل أسبوع مرة مراعاة لكمال راحتك . والآن الوداع ياصاحبى

فنهضت وأنا أشعر بالندم يحز فى نفسى ويهيمن على إحساسى . وقلت : أهذا آخر ما تقولين ؟ إن كان حقاً ما نويت فاعلمى أننى أغادر جنيف دون أن أمس شيئاً من هذه الحقائب والوثائق . وسأترك لك المال والحوالات فلم يعد لى فى الحياة مطمع بعدك وأن الدنيا هينة عندى فى جنب رضاك . وإذ ذاك لاحت علائم الدهشة واضحة على جبينها . ثم تبسمت ابتسامة تمثلت فيها دلائل الحب والاخلاص اللذين كان ينطوى عليهما فؤادها وما شعرت به نحوى من عطف فأقبلت أداعبها وأسألها الصفح عما بدر منى ، فأجهشت فى البكاء ولم تتكلم حتى الصباح

محمد لطفى جمعة

(١) أى الشفرة والسر وهما معروفان